العدالة في علم الاقتصاد

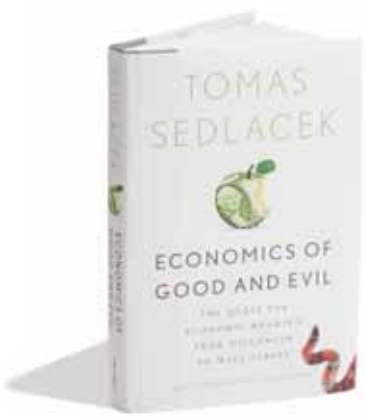

توماس سدلاتشيك

Tomas Sedlacek

اقتصاد الخير والشر

Economics of Good and Evil

السعي وراء المغزى الاقتصادي من غلغامش إلى وول ستريت

The Quest for Economic Meaning from Gilgamesh to Wall Street

Oxford University Press, Oxford, New York, 2011, 368 pp., $27.95 (cloth).

تناسى البعض الأزمة المالية. أما الأصوات المنادية بإدخال المبادئ الأخلاقية في الأعمال المصرفية أو بإعادة النظر في أساسيات الاقتصاد، فقد دفعها جانبا رجال ونساء الأعمال أو الاقتصاد العمليين الحريصين على مواصلة دورهم في الحياة. وعادت المؤسسات المالية إلى ممارساتها القديمة المعتادة، وانبعثت من جديد المصالح المكتسبة في النقاش الدائر حول الإصلاح التنظيمي، بينما توصل كثير من خبراء الاقتصاد، كمثال واضح على التحيز الخفي للرأي، إلى أن الأزمة قد أكدت لهم فعلا ما كانوا يعتقدونه.

ومع ذلك.... فقد دمرت الأزمة فرص العمل وميزانيات الأسر المعيشية، وخلفت وراءها إرثا من التوترات المالية سيثقل كاهل الحكومات لجيل كامل. وثبت أن خفض التمويل بالديون أمر مؤلم، كما تشير مشكلات منطقة اليورو واحتمالات تدهور النمو على مستوى العالم إلى مواجهة مزيد من المتاعب في المرحلة القادمة. ويفكر خبراء الاقتصاد في أماكن مختلفة فيما إذا كان القطاع المالي قد شوه مجتمعاتنا بصورة جوهرية، وما إذا كان علم الاقتصاد باعتباره أحد فروع المعرفة في حاجة إلى انتهاج مسار مختلف.

إن هذا الكتاب، الزاخر بالمعلومات والمبتكر والصادر في حينه، هو تدريب عملي فيما وراء علم الاقتصاد (metaeconomics)، ودراسة للمعتقدات الكامنة وراء علم الاقتصاد. فينظر توماس سدلاتشيك، وهو عالم اقتصاد تشيكي رائد، في الأصول الفكرية لبعض افتراضات هذا العلم، وبعض المناهج البديلة التي أهملناها في أفكارنا المتوافق عليها قبل الأزمة. وتقوم كل المعارف العقلانية على بعض الافتراضات عما هو مهم وكيف يسير العالم. وتلك حكايات أو أساطير نتقبلها، دون وعي عادة، باعتبار أنها تعطي للعالم معنى. وفي علم الاقتصاد، تشمل تلك الأساطير اليد الخفية، والسوق التامة، والإنسان الاقتصادي (homo economicus) الرشيد الذي يعظم المنفعة.

ويعتمد سدلاتشيك على قراءاته الواسعة والانتقائية ليؤكد أن علم الاقتصاد هو منتج ثقافي. ويبحث في الفصول الأربعة الأولى في المصادر السومرية، ومصادر العهد التوراتي القديم، والمصادر اليونانية التقليدية، والمصادر المسيحية للتعرف على رؤاها المتعمقة في المسائل الاقتصادية. وتتناول الفصول القصيرة الثلاثة التالية إسهامات كل من رينيه ديكارت، وبرنار ماندفيل، وآدم سميث في فكرنا الاقتصادي. ويتكون القسم الأخير بعنوان "أفكار مجدفة» من مجموعة مقالات قصيرة تطبيقا للنتائج التي تم التوصل إليها في الفصول الأولى فيما يخص مسائل مثل: هل يعتبر الجشع أمرا طيبا، ومفهوم النمو، وما إذا كانت هناك ضرورة لتعظيم المنفعة والخير لأقصى حد، واليد الخفية، والإنسان الاقتصادي، وأرواح الحيوانات، والدور الملائم للرياضيات في علم الاقتصاد، وطبيعة الحقيقة في علم الاقتصاد وغيره من العلوم.

ويرى علماء الاقتصاد التقليديون أن علم الاقتصاد كان جزءا من الفلسفة الأخلاقية. إلا أنه تمت بعد ذلك تنحية الأخلاق جانبا، حيث حل منهج ماندفيل القائل بأن «الجشع أمر طيب»، محل التقاليد اليهودية والمسيحية الأقدم، على حد سواء، إضافة إلى آراء سميث وديفيد هيوم. وبالمثل، فإن إرث النفعية هو منهج لتعظيم المنفعة الفردية إلى أقصى حد، أكثر من تأكيد جون ستيوارت ميل الأخلاقي على المنفعة الجماعية– أكبر نفع لأكبر عدد. والحقيقة أن موطئ القدم الوحيد الذي حظيت به الأخلاق في علم الاقتصاد الحديث هو اعتبارها أساسا للمؤسسات جيدة الأداء في إطار اقتصاد مزدهر. ويرى سدلاتشيك أن الوقت أصبح ملائما لإعادة النظر فيما إذا كانت منتجات الاقتصاد «سلعا» بالمعنى الأخلاقي.

ويؤكد سدلاتشيك الخلاف الصريح بين سميث وماندفيل حول ضرورة وجود الرذيلة الخاصة لدعم الصالح العام، وبالتالي تبرئة سميث من تهمة الاعتقاد بأن السعي وراء تحقيق المصلحة الذاتية الفردية هو ضمان لازدهار الأمة. وقد اعترف سميث في اتفاق مع صديقه المقرب هيوم، في كل من كتاب «نظرية المشاعر الأخلاقية»، وكتاب «ثروة الأمم»، بأن المجتمع البشري كانت تجمعه معا مبادئ فعل الخير وضبط النفس، وأن اليد الخفية التي جمعت بين العرض والطلب من خلال السعي وراء المصلحة الذاتية كان مجرد آلية مساعدة. والحقيقة أن مفهوم اليد الخفية يدين أكثر للنظرية الداروينية الاجتماعية بأكثر مما يدين لسميث.

وقد أدى البحث عن مبدأ واحد وراء السلوك الاقتصادي إلى نشأة فرع من فروع المعرفة يرى في المصلحة الذاتية محركا لكافة الظواهر الاقتصادية، بالرغم من تحذير سميث الصريح من محاولات تفسير تصرفات البشر من خلال مجموعة محدودة للغاية من الدوافع. فالإنسان جرى اختزاله إلى إنسان اقتصادي وسيط، ومجرد عنصر تحركه الاختيارات العقلانية لا غير. ولكن هيوم وسميث لم يعترفا بأن السلوك الإنساني يمكن تفسيره بمبدأ واحد يقوم على الأنانية. فهما يعتقدان أن «المشاعر، وليس العقلانية، هي القوة المحركة وراء السلوك البشري».

وتحتاج الحركات الفكرية إلى وقت كي تتطور. ولا بد للبنيان الفكري الجديد أن يكتمل قبل أن تتحول إليه جموع الناس متخلية عن البنيان القديم، فهو يتطلب كتلة حرجة من الصيغ والنظريات الجديدة التي تقدم نظرة واقعية متعمقة تجاه المشكلات الحالية. إلا أنه طبقا لتعبير كينز، «عاجلا أو آجلا، فإن الأفكار، وليس المصالح المكتسبة، هي التي تشكل خطرا على الخير أو الشر». إن كتاب سدلاتشيك المثير للاهتمام هو جزء من مشروع لبناء علم اقتصاد أفضل ولتحقيق عالم أكثر عدلا.

مارك آلن
ممثل مقيم أول لصندوق النقد الدولي في أوروبا الوسطى والشرقية

مطلب يبحث عن ذاته

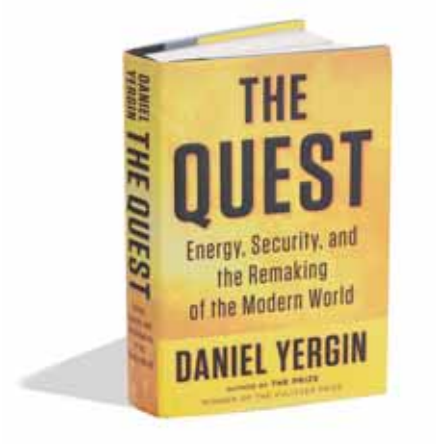

دانييل يرغن

Daniel Yergin

المطلب

The Quest

الطاقة والأمن وإعادة تشكيل العالم الحديث

Energy, Security, and the Remaking of the Modern World

The Penguin Press, New York, 2011,
816 pp., $37.95 (hardcover).

يقدم كتاب دانييل يرغن الجديد المثير للاهتمام بعنوان «المطلب» دليلا ثريا بالمعلومات يتناول كيف تشكل الطاقة وكيف يشكلها علم الاقتصاد العالمي، والقوى، والأمن. وقد اختار يرغن موضوعا كبيرا ومعقدا، لكنه استطاع أن يجعل كتابه الضخم في متناول جمهور عريض، وذلك بإجراء تحليلاته من خلال مئات من الصور القلمية الموجزة، وكثير منها غني بالتفاصيل التاريخية. فيحصل عامة القراء على كثير من المعلومات عن عالم الطاقة الواسع الذي نعتمد عليه بصورة كاملة – كيف وصل إلى ما هو عليه الآن، وكيف يعمل. ويحظى خبراء الطاقة – وإن لم يكونوا هم الجمهور الأساسي – بتقدير أكبر نظرا للتفاعل المعقد بين التكنولوجيا والأسواق والبيئات والسياسة في الجدل الدائر اليوم عن الطاقة.

ويبدأ يرغن قصته في الحادي والثلاثين من ديسمبر ١٩٩١، وهو اليوم الذي انهار فيه الاتحاد السوفيتي السابق. وقد يتساءل القراء (كما فعلت أنا) لماذا تبدأ قصته عن الطاقة من روسيا، وبعيدا عن دائرة الضوء المخزية في الشرق الأوسط. والسبب هو أن هذه القوة العظمى في مجال الطاقة تعاني العديد من نعم ونقم اقتصاد النفط والغاز. فروسيا لديها القدرة على إعادة رسم خريطة العالم الخاصة بالوقود الأحفوري، إلا أنها لا تزال في حاجة إلى ترتيب شؤونها الداخلية الخاصة أولا. فيتعين عليها أن تصبح أكثر كفاءة وترتيبا وتنظيما. ويتعين على روسيا أن تحد من الاعتماد المحلي على الموارد الطبيعية لتحقيق أقصى حد من استغلال ثروتها الهائلة من الموارد الطبيعية.

كذلك فإن التكاليف الجغرافية–السياسية الشاقة للنفط والغاز هي موضع تركيز شديد في روسيا، ذلك أن الدخول إلى أسواق آسيا المربحة تعوقه الاضطرابات الدائمة في الدول المجاورة. وتحويل موارد روسيا الطبيعية إلى نمو اقتصادي يقتضي إيجاد طريق آمنة للخروج عبر آسيا الوسطى إلى نقاط في الجنوب. ويتحدث يرغن بالتفصيل عن الشخصيات، والسياسة، وفراغ السياسات، والفوضى والعنف التي تعوق تحقيق الأمن الاقتصادي اعتمادا على موارد الثروة، ذلك أن امتلاك الثروة المعدنية شيء، والبدء استراتيجيا في تحويلها إلى نمو قومي طويل المدى وإلى استقرار إقليمي، شيء آخر.

ويروي يرغن، على خلفية الاضطرابات السياسية، كيف بدأت العولمة في ربط العالم معا اقتصاديا واجتماعيا بطرق لم يكن يتخيلها أحد من قبل. فقد اختفت المسافات وكذلك الحدود نتيجة ربط عمليات التمويل وسلاسل العرض بالإنتاج والتجارة معا حول العالم. والحفاظ على التوازن في مجال الطاقة أمر بعيد المنال. ويذكر يرغن كيف أن النفط والغاز (بوصفهما سلعا مادية وأدوات مالية على حد سواء) يمتلكان القدرة على تغيير الاقتصادات القومية، بل وتغيير الأمم نفسها.

ويتعرض التوازن الدقيق في أسواق الطاقة للاضطراب بسهولة بفعل أي عدد من القوى. ويتأثر مستقبلنا في مجال الطاقة بعمق بعوامل قومية الموارد، والصراعات العرقية والثورات الشعبية في البلدان المصدرة للنفط، والتقلبات غير المتوقعة في الاقتصاد العالمي، والابتكارات المثيرة للاضطراب في مجال التكنولوجيا والتمويل، والنمو المتوهج في الأمم الصاعدة، والاضطرابات السياسية في الداخل والخارج، والحروب والمناوشات، والإرهاب والهجمات الافتراضية التي تستهدف أنظمة الطاقة، وتغير المناخ، وقوى الطبيعة. ويؤكد يرغن أن «الأزمة القادمة قد تأتي في أغلب الظن من أي اتجاه».

وفيما يقدم لنا يرغن العديد من علامات التحذير القيمة، فإنه لا يزودنا بأدوات تُذكر لقياس أين تكمن الأولويات في الطاقة والأمن وإعادة تشكيل العالم الحديث. وسيتطلع القراء إلى معرفة كيفية قيام الأمريكيين ومواطني العالم بصياغة استراتيجية معقولة للطاقة في القرن الحادي والعشرين. وما يقدمه كتاب «المطلب» هو مجموعة من قطع تركيب صورة كبيرة، كلها يغري تماما بالتفكير، لكن يصعب تجميعها.

وما يفتقر إليه هذا الكتاب من حيث الوضوح والحسم تعوضه مقترحات التصحيح القيمة. ويحاج يرغن بأن طموحات الولايات المتحدة لتحقيق

يتعرض التوازن الدقيق في أسواق الطاقة للاضطراب بسهولة بفعل أي عدد من القوى.

الاستقلال في مجال الطاقة ليست فقط غير واقعية، بل يمكن أن تؤدي إلى تقويض العلاقات الدولية التي تكتسب أهمية حاسمة في تحقيق أمن الطاقة في عالم مترابط ومحدود الموارد. والكهرباء متنوعة الاستخدامات بصورة غير محدودة «تمثل دعامة للحضارة الحديثة». وبالنسبة لعالم الأعمال، فإن المسألة الأهم لأمن الطاقة ستتمثل في الأهمية المتزايدة للكهرباء، حيث تدار غالبية الابتكارات بالطاقة الكهربائية. وبينما لا يواجه العالم نضوبا في النفط – فإن الزيوت غير التقليدية يمكن أن توفر إمدادات كافية في المستقبل – فعلينا العمل على زيادة انتشار السيارات التي تدار بالكهرباء لكثير من الأسباب الأمنية. وبدلا من تعريض الحركة العالمية للخطر، فإن المركبات التي تُدار بالكهرباء ستحقق استقرارا في مجال الطاقة، وتحرر النفط لتلبية احتياجات أخرى. وإضافة إلى هذه الشذرات القيمة، هناك الكثير من الأفكار الذكية التي يمكن استكشافها في ثنايا هذا الكتاب.

وفي النهاية يذكرنا يرغن بأن الطاقة بوجه عام مسألة تتعلق بالمفاضلات. ورسم خريطة مستقبل الطاقة يقتضي أن نبحر في خضم المخاطر والتحديات المتأصلة التي يفرضها النفط والغاز والطاقة النووية وغيرها من مصادر الطاقة، فليس ثمة يقين بشأن تأمين مستقبلنا فيما يخص الطاقة، ذلك أن تأمين الطاقة سيظل مطلبا مستمرا يبحث عن ذاته.

ديبورا غوردون
مؤلف مشارك في كتاب: «مليارا سيارة:
السعي نحو الاستمرارية» وزميل أول
في وقف كارنيغي للسلام الدولي